في رواق المرسى معرض " في الانتظار..." لمحمّد أمين الاينوبلي: بياض البدايات الغامضة

في معرضه الثاني الفردي "... En suspens " برواق المرسى (24 – 1/ 28– 2– 2025)، ويمكن ترجمة العنوان الذّي يحيل على دلالات عدم الاكتمال واللايقين ب" في الانتظار.."، يواصل محمد أمين الاينوبلي نفس التمشّي الجمالي المخصوص.

قذ تبدو لوحات محمد أمين الاينوبلي كصور فوتغرافية. ولكنّها ليست كذلك. إنّها لوحات تُبنى على صورة فوتغرافيّة أو تبدأ منها. يشتغل محمد أمين عادة على تفصيل واحد أو تفاصيل صغيرة، في نوع من التقشّف والزهد الذي يفتح أعيننا للمفارقة على ثراء وغناء وكثافة ما يوجد في أشياء الحياة. ولكنّه ثراء من نوع آخر، ينتمي إلى عالم آخر بلا حكايات كبرى.

في لوحة " بالدارجة" نرى جدارا من الآجر الأحمر لم يكتمل طلاؤه بالاسمنت، غُرست فيه شظايا بلّور كي تمنع المتسلّقين واللصوص من اجتياز الجدار والولوج إلى الحديقة أو البيت. وأعلى الجدار، في البياض الذي يسمح برؤية الأشياء بأكثر وضوح يتدلّى غصن رمّان يحتوى على ثلاث رمّانات ، كما يظهر طرف غصن آخر نحيل بلا ثمار بادية. تُبرز الشقوق بالرمّانتين أنّ هناك خطبا ما؛ كأن تكون الشتلة رديئة أو أنّ مرضا ما أصاب الشجرة، والأرجح أنّها تشكو من غياب الماء أو عدم انتظامه ممّا أفسد الرمّانات. يبدو أنّ صاحب الجدار الذي وضع شظايا الزجاج لحماية حديقته لم يعتن بها جيّدا وحتّى إن خاطر أطفال أو لصوص بدخول هذا الحَرَم المحروس فإنّه لن يجد إلا ثمارا مشقوقة فاسدة. ثمّة قصّة ما قد توحي بها هذه اللوحة. قصّة ما توحي بها هذه التفاصيل التي قد تبدو مبتذلة، فما نراه هو مجرّد مشهد حَضَري في مدينة غير قادرة على استيعاب حداثتها وتحمّلها . ممّا قد يبدو تفاصيل تافهة عاديّة من نثر الحياة تخاتلنا لوحات محمد أمين الاينوبلي لتفتح

أعيننا على هذا الشيء الضائع أو الغائب الذي لا ندري ما هو. ثمّة أوّلا ما يوهم بأنّ اللوحة هي مجرّد لوحة فوتغرافية. ولكن الأمر ليس كذلك: البياض الذي تتدلّى فيه الرمّانات، الجدار، شظايا الزجاج؛ كلّها مرسومة انطلاقا من صورة فوتغرافية، كأنّ الرسّام يحاكيها بفرشاته وألوانه ويعود إلى التعريف الأول للفنّ بوصفه محاكاة للواقع.

ثمّة لوحة أخرى يحمل اسمها دلالة عالية وقوّية: " Retour aux sources العودة إلى النبع". في هذه اللوحة نرى جدارا مرصوصا من الحجارة المرصوفة فوق بعضها البعض دون اسمنت أو مادة أخرى تُمسك بالأحجار وبانتظامها الهشّ. خلف الجدار ثمّة تخطيط لرجل ، مسودّة كائن يشير بيده إلى الأرض كمن وجد شيئا ما يبحث عنه أو كمن يشير إلى نقطة ما، حدٍّ ما يتوجّب الانطلاق منه. في أعلى اللوحة نرى نفس الرجل بكامل هيأته بنفس الحركة فيما يوهم أنّها صورة فوتغرافية له ألصقها الرسام في أعلى اللوحة كي يعيد رسمها على تلك الشاكلة الموجودة في الأسفل. في نفس الآن الذّي يكشف فيه الاينوبلي عن الطريقة التي يعمل بها ويفضح تمشيّه الجمالي مزيحا عن الفن قدسيّته وسحْره المُلغز، يقدّم لنا سحرا آخرَ من طينة أخرى . يولجنا إلى عالم الدلالة الغائبة للوحة وفي نفس الوقت يجعلنا على مسافة منها كأنّه يقول عنها إنّها مجرّد لوحة وإنّني رسمتها انطلاقا من صورة فوتغرافية، وصنعت من رجل حقيقي مجرّد تخطيط أو مسّودّة لرجل يشير إلى شيء ما. وهذا الشيء وكما يحيل عليه اسم اللوحة هو عودة إلى الينابيع. ولكن أيّة ينابيع؟

في لوحة أخرى تحمل عنوان " Aller simple " نرى رجلا يقف على عارضة خشبيّة معلّقة في البياض يمسك بعصاه وبالقرب منه سطل فارغ تبرز منه مقبض ملعقة بَنَّاءٍ. البنّاء يميل برأسه قليلا في وضع من يتأمّل منجزه. البياض، موضوع التأمّل لا يحيلنا إلى صورة محدّدة أو معنى محدّد، فقد يكون البِنَاء قد اكتمل أو لعلّه لم يبدأ بعْدُ فكلّ شيء لا يزال في طور التخطيط، مسودّة لعمارة ما، رغبة مضمرة لهندسة الفراغ والبياض. وحده تفصيل السطل غير المليء بخلطة الاسمنت قد يوحي لنا بأنّ البَنَّاء في لحظة فراغ، أو أنّه في لحظة استراحة قبل استئناف شغله يتأمّل ما لا نراه بفعل حجاب البياض. ولكن ماذا يخفي البياض حقّا؟ لحظة بدءٍ أم لحظة اكتمالٍ ؟

في لوحة " Personnel data " نجد كالعادة البياضَ المُلغز إيّاه ونرى لمبة تتدلّى من الأعلى وفي الأسفل يمينا ثمّة امرأة تدير لنا ظهرها. شعرها ملموم بأناقة ومعقود بفرشاة بينما تميل قليلا برأسها وهي تمسك بأذنها كما لو أنّها تنظّفها. هل هي في لحظة فراغ من زينتها أم في لحظة البدء؟

تضعنا لوحات محمّد أمين الاينوبلي على العتبات وتعيدنا إلى البدايات دائما. فحتّى حين نتوهّم أنّنا قد بلغنا النهايات لا نفعل سوى البدء من جديد. تعيدنا إلى نثر الحياة البسيط كما هو مجرّدا من الدلالات الكبرى فلن نجد موضوعات دينية كبرى أو مشاهد طبيعيّة جليلة. لن نجد الحرب وأهوالها مثلا. نجد في اللوحات قصصا مخبّأة، مسوّدات حياة ممكنة، تفاصيل قد تبدو حقيرة مبتذلة: شوكة علقت بها بقايا كيس بلاستيكي أزرق، حشرة عالقة في البياض إيّاه، حشيّة سرير فيروزيّة اللون في نفس البياض، خيوط شحن هواتف معلّقة للبيع، أغصان متشابكة، ودائما تتوزّع هذه التفاصيل في البياض الحليبي، بياض النهايات والبدايات الغامضة.

ثمّة عالم يموت أو ربّما ثمّة عالم جديد قديم يُقام على أنقاضه أو لعلّنا لا نزال في نفس العالم حيث تلوح أشياء الحياة كما هي في ظهورها وبساطتها وفي حدوثها. فذلك ما يحدث حقّا بعيدا عن المنظومات والعقائد الكبرى التي بقدر ما تهب الكائن المعنى من وجوده بقدر ما تطحنه وتسحقه، لذلك ثمّة ضرورة للعودة إلى ينبوع الحياة الحيّ النابض، إلى البياض الذي يبدأ منه كلّ شيء وينتهي إليه، فكلّ جزء من الحياة هو كلٌّ، كاملٌ مكتف بذاته، خفيفٌ في بساطته المحتملة، أزليٌّ وعارضٌ، وذلك تحديدا ما يجعله حيّا.

كمال الهلالي

جريدة الصحافة

27 فيفري 2025